منوعات

عام آخر مرّ، وتبعات تفشي فيروس كورونا تواصل تحكّمها في مفاصل الحياة. وما ينطبق على الأسواق والاقتصاد والتربية ينطبق كذلك على السينما. فرغم بعض الخطوات للخروج من العزلة التي عرفها العالم عام 2020، بدا أن شكل المشاهدة والإنتاج والعرض قد تغيّر إلى الأبد، وهو ما تمثّل في شكل المهرجانات الدولية، وأساليب عرض الأعمال السينمائية

سينما 2021
ارتباكات وانقلابات

غابت السينما الغنائية باستثناء «تيك، تيك... بوم!» للين مانويل ميراندا (IMDb)

محمد هاشم عبد السلام

يُعتبر عام 2021 من أغرب الأعوام السينمائية التي مرّت، إنتاجاً وتوزيعاً وعروضاً سينمائية وفيلمية، وأيضاً على مستوى المهرجانات السينمائية، وبعضها أُقيمت دورته الجديدة على شبكة «إنترنت»، للمرّة الأولى في تاريخه، كالدورة الـ71 (1 . 5 مارس/آذار 2021) لـ«مهرجان برلين السينمائي الدولي»؛ أو تأخّرت دورته تلك عن موعدها الثابت، كمهرجان «كانّ»، المؤجَّلة دورته الـ74 إلى الفترة بين 6 و17 يوليو/تموز 2021.

أفلام كثيرة كان يُنتظر عرضها في الربع الأول من العام الماضي، أو في فصل الصيف، لكنها لم تخرج إلى النور إلا هذا العام. بعضها تأجّل عرضه المحدّد في موعد أول، أكثر من مرّة. الغريب أنّ أفلاماً أخرى عُرضت في مهرجاناتٍ شتى، ونالت جوائز عدّة، قبل عامين، لم تُعرض تجارياً في بلدان كثيرة إلاّ هذا العام. أفلامٌ أخرى أُنتجت هذا العام وعُرضت فيه، وأخرى، بعضها إنتاج مستقلّ، لم يُعرض منذ عام 2019. هذا يوضح أنّ التفاوت والتضارب كبيران جداً.

في المقابل، هناك اكتظاظ وتراكم كبيران في الأفلام والعروض. بسبب إغلاق الصالات، كانت العروض أقلّ في أماكن أخرى من العالم، والجمهور أقلّ وأقلّ. بلدان عدّة ظلت صالاتها مُغلقة، وعندما سُمح بفتح أبوابها، حُدِّدت طاقاتها الاستيعابية بنصفها، ما زاد الارتباك والتشوّش. لكنّ الأمر أفضل من عام كارثيّ سبقه. عامٌ غلّفه الجمود والانتظار والتأجيل.

مع اقتراب منتصف عام 2021، وحلول فصل الصيف تحديداً، أخذت الأمور في الانفتاح والتسارع أكثر، وإنْ بوتيرة قلقة ومتحفّظة على غير المُعتاد، وذلك في محاولة مضنية لتعويض الخسائر، واسترجاع المساحات المقتطعة، التي حازتها المنصّات المختلفة، ما أدّى إلى تسارع وتيرة العروض. الآن، مع ظهور اللقاحات، وانتشار التلقيحات بشكلٍ كبير، بات مُمكناً انتظام وتيرة الإنتاج والتوزيع والعروض السينمائية، وعودة الأمور إلى سابق عهدها.

لكنْ، هل ستتنازل المنصّات عن حصّتها في السوق والإنتاج والجوائز، التي باتت تقتنصها عاماً تلو آخر؟ أم سيؤدّي النزال، الحتمي الوشيك، إلى حسم المعركة باكراً جداً؟ فمشاركة المنصّات في الإنتاج لم تعد عابرة أو مجرّد نزوة، بل حاضرة وبقوّة، والأرقام تشير إلى أنّها لم تغزُ الأسواق بعد. مثلاً، شاركت «نتفليكس» في إنتاج وعرض وتوزيع «يدّ الرب»، للإيطالي باولو سورينتينو، الفائز بجائزة «الأسد الفضي . الجائزة الكبرى للجنة التحكيم»، في الدورة الـ78 (1 . 11 سبتمبر/أيلول 2021) لـ«مهرجان فينيسيا السينمائي». شبكة «آبل تي. في. بلاس» موزّعة «كودا»، للأميركية شان هيدر، الفائز بجوائز عدّة، منها أفضل إخراج ولجنة التحكيم الكبرى وجائزة خاصة من لجنة التحكيم إلى فريق التمثيل كلّه، في الدورة الـ37 (28 يناير/كانون الثاني . 3 فبراير/شباط 2021) لـ«مهرجان ساندنس السينمائي». الإبداع السينمائي، بأنواعه المختلفة، لن يندثر، ولن يصير من الماضي أبداً، في ظلّ وجود المنصّات. التجربة أثبتت أنّ المحتوى، على تباينه، متوفّر. بل هناك سخاء غير عادي في إبداع الجديد وإفرازه. بعيداً عن الإبداع، هناك تركيز على الصناعة والتوزيع، وتنبّه إلى تعقيدات العالم وتطوّراته المتسارعة، ووباء كورونا، وانحساره أو عدم انحساره في الأعوام المقبلة، وانتقال البشر إلى حالة مغايرة، سلوكاً وعادات، وأيضاً طقوس مُشاهدة؛ إلى التطوّر المُخيف للتكنولوجيا، الذي سيسمح للبشر بالاندماج ليس مع أو بها، بل فيها. مثلٌ على ذلك: مشروعا شبكة «إنترنت 3» و«ميتافيرس»، وغيرهما من المشاريع الهادفة إلى خلق عوالم افتراضية بسرعات هائلة، وقبل هذا ابتكار عملات افتراضية تُقدَّر الآن بآلاف الدولارات. هذا كلّه ليس مزحة إطلاقاً. سيتمّ، بأسرع من المُتصوَّر، «دهس» صالات العرض السينمائي، وإجبار السينما على التطوّر إلى آفاق غير معهودة. ستبلغ شركات الإنتاج مرحلة التماهي والاندماج والسير في ركاب المنصّات، أو الرضى بمشاركة التطوّر التكنولوجي لها في حصّتها في الأسواق، الآخذة في التآكل.

> هل ستتنازل المنصّات عن حصّتها في السوق والإنتاج والجوائز؟
>
> انتقل العالم تدريجياً إلى طقوس مشاهدة مختلفة ومغايرة

هذه الحقائق، التي تفرضها قوّة الواقع الملموس، تواجه الإنتاج السينمائي. المشكلة الكبرى، الحقيقية والخطرة، تواجه صالات العرض، إذْ تؤكّد مؤشّرات كثيرة أنّ ربحيّتها، وبالتالي وجودها نفسه، مهدّدان تهديداً كبيراً، وأنّ مستقبلها ليس ورديا أبداً.

مُقارنة الإنتاج السينمائي، كمُنجز إبداعي وفني وثقافي، بين عام وآخر، أهمّ وأكثر قيمة من الأرقام والإحصائيات، وإنْ تتعارض أحياناً مع المكاسب المادية. صحيحٌ أنّ المقارنات الفنية والإبداعية لا تُطلِع المهتمّ على الأرباح، بل على حجم الإنجاز المُحقَّق، ومدى اختلاف هذا الإنجاز، ومستويات تميزه فنياً وثقافياً؛ كما تُبيّن إنْ يمضي المنحى الجمالي والفكري والإنساني صعوداً أم لا. لكنْ، مرّة أخرى، عقد مقارنات، في ظرف عالمي حرج، ليس عادلاً ولا مُنصفاً.

رغم ذلك، يُعتبر عام 2021 من أهمّ وأقوى وأثرى الأعوام، نظراً إلى ما ظهر فيه، فنياً وأدائياً وإنتاجياً، وطرحاً لأسماء جديدة، ولأفكار ومعالجات، وظهور بلدان جديدة، ورسوخ أخرى مُحقّقة فعلياً. المُلاحظة على إنتاجات العام نفسه، إجمالاً، تُقارب المستوى الفني بينها، رغم الثراء الملحوظ، والتنوّع المُدهش. باختصار، لم يُقدِّم عام 2021 تُحفاً سينمائية، يمكن القول عنها إنّها ستعيش عقوداً مديدة في ذاكرة السينما.

أول ما يُثير الانتباه، أنّه على عكس المتوقَّع تماماً، لم تظهر أفلامٌ تتناول ما تعرّض له العالم بسبب كورونا، وما ترتّب عليه من انقلاب أحوال البشر، مادياً ومعنوياً وسياسياً، باستثناء قلّة، أغلبها قصير أو وثائقي. لم يظهر فيلمٌ لافتٌ فنياً حتّى اللحظة. ربما يُمكن ردّ السبب إلى مسألة إنتاجية. أو أخرى مرتبطة بالكتابة أو الانتظار، إذْ يجري التركيز أكثر على تنفيذ ما اتّفق عليه سابقاً، أو على ما شُرِعَ في تنفيذه ثم تعطّل التنفيذ، أو على ما جرى تنفيذه قبل أزمة كورونا أو أثناءها.

يُلاحظ هذا العام ندرة أفلام الحروب، أهمّها المجري «ضوء طبيعي» لدينيس ناجي، الفائز بـ«الدب الفضي . أفضل إخراج»، في الدورة الـ71 (1 . 5 مارس/آذار 2021) لـ«مهرجان برلين السينمائي»: تدور أحداثه في نهاية الحرب العالمية الثانية، والغزو السوفييتي للمجر، واحتلالها. كذلك بالنسبة إلى الأفلام التاريخية، القليلة هذا العام، وأبرزها الفيلم الملحمي الرائع «المبارزة الأخيرة»، للبريطاني ريدلي سكوت، الذي تدور أحداثه في القرون الوسطى، والمأخوذ عن قصّة حقيقية.

الندرة أو القلّة سمة أفلام السِيَر الذاتية وسِيَر شخصيات عامة ومشهورة، أبرزها «منزل غوتشي»، لسكوت أيضاً، عن جريمة الابن موريتزو. أما «سبنسر»، للتشيلي بابلو لارين، فتناول بشكلٍ مُكثّف (3 أيام) مرحلة تفكير الأميرة الراحلة ديانا في زواجها الفاشل من الأمير تشارلز، وتفكيرها في الانفصال. كذلك برز وثائقي رائع للأميركي أوليفر ستون، عن الرئيس الأميركي السابق جون كينيدي، «إعادة النظر في مقتل ج أف ك: عبر نظرة زجاجية».

أما السينما الغنائية والاستعراضية، فغير موجودة تقريباً هذا العام، باستثناء «تيك، تيك... بوم!»، للأميركي لين مانويل ميراندا، المأخوذ عن السيرة الذاتية للمسرحي والموسيقي الأميركي جوناثان لارسون، الراحل في أوجّ شبابه وبدايات مجده.

رغم الكثرة النسبية لأفلام الـ«وسترن»، لم يبرز منها إلاّ «قوّة الكلب»، للنيوزيلاندية جاين كامبيون، الفائز بجائزة أفضل إخراج في «مهرجان فينيسيا الـ78»، الذي يُعتبر من أبرز الأعمال المهمّة المأخوذة عن رواية أدبية، فالسيناريو (كامبيون) مقتبس من رواية بالعنوان نفسه، للأميركي توماس سافاج، صدرت عام 1967. هناك أيضاً اقتباس رائع لرواية «كثبان» (1965)، للأديب الأميركي فرنك هيربرت، في فيلم بالعنوان نفسه للكندي دوني فينلوف. و«ضوء طبيعي» (2014)، للأديب المجري بال زافادا، التي اقتبسها دينيس ناغ في فيلم بالعنوان نفسه.

سينما 2021

ارتباكات وانقلابات

الإنتاج العربي

أزمة الهوية والعنف

عبد الكريم قادري

يصعب الحديث عن الأفلام العربية، المُنتجة عام 2021، في غياب الكمّ والكيف، والخيارات التي تُشكّل تياراً أو اتّجاهاً سينمائياً، يمكن تأسيس بُعدٍ نظري حوله، يُحلّل ويؤوّل ويُحصي ويبني، انطلاقاً من ركائز السينما وعناصر الفيلم، لأنّ النتائج المرتبطة بالأرقام والمقارنات تُعرّف بما مضى، وتستشرف المستقبل. لذا، تُتناوَل إفرازات المهرجانات السينمائية الكبرى (الغربية تحديداً، والعربية بشكل أقل) وصالات السينما، والاطّلاع على التقييمات النقدية الجادّة، والاستئناس بأرقام شبّاك التذاكر، إنْ وُجدت. فالصناعة السينمائية المتكاملة غائبة في العالم العربي.

رغم النظرة السوداوية التي يفرضها الواقع، لا يُمكن نفي اجتهادات حدثت وتحدث هنا وهناك، حاولت . ممّا توافر لدى مخرجيها ومنتجيها . تحريك المياه الراكدة، التي أسهمت فيها الاقتصاديات العربية المتردّية، في الدول التي لديها تقاليد سينمائية، وغياب ثقافة الصناعة السينمائية لدى الأخرى، التي تصنع أفلاماً متواضعة تُساير بها الموجة. إضافةً إلى ظروف جائحة كورونا، التي أصابت العالم كلّه، وأسهمت . بشكل كبير . في حجب أفلام كثيرة، خوفاً من مواعيد الإغلاق التي يمكن أنْ تتزامن مع إعلان إطلاق العروض التجارية لهذا الفيلم أو ذاك، ما جعل الجهة التي تملك السلطة على الفيلم متردّدة، تتعامل مع المسألة بحذر، خوفاً من المآلات التي يُمكن أنْ يواجهها الفيلم، حتّى وإنْ كان جيداً.

هناك أيضاً عدم اكتمال فرحة قبول فيلم في مهرجان سينمائي، إمّا لإقامة دورته «أونلاين»، وإمّا لإلغائها، كما حدث مع مهرجان «كانّ» في دورته الـ73، التي حُدِّد موعدها بين 12 و23 مايو/أيار 2020. حينها، اكتفى المنظّمون بنشر لائحة الأعمال المختارة (56 فيلماً)، بينها أفلام عربية، كالمصري «سعاد» (2020) لآيتن أمين، واللبناني «مفاتيح مكسورة» (2020) لجيمي كيروز، والفيلم القصير «ستاشر» (2020) للمصري سامح علاء، الذي نال «السعفة الذهبية» في الدورة المصغّرة (27 . 29 أكتوبر/تشرين الأول 2020).

هذا حدث أيضاً في الدورة الـ71 لـ«مهرجان برلين السينمائي»، التي أُقيمت «أونلاين» بين 1 و5 مارس/آذار 2021، وأشعر صنّاع السينما الغربيين والعرب بالخيبة.

هذه المعطيات وغيرها أثّرت، بشكل كبير، بإنتاجات السينما العربية عام 2021. لكنْ، هناك أفلام غامر أصحابها، بدفعهم إياها إلى المهرجانات، أو بإعلانهم عنها، كـ«ريش» (2021) للمصري عمر الزهيري، المُشارك في «أسبوع النقاد»، في الدورة الـ74 (6 . 17 يوليو/تموز 2021) لمهرجان «كانّ» السينمائي، والفائز بجائزة هذا القسم. إضافة إلى مشاركة فيلمين آخرين في الدورة نفسها، المغربي «علّي صوتك» (2021) لنبيل عيوش، والتونسي «مجنون فرح» (2021) لليلى بوزيد. في «مهرجان فينيسيا السينمائي»، المنعقدة دورته الـ78 بين 1 و11 سبتمبر/أيلول 2021، شاركت 6 أفلام عربية في الأقسام الموازية: المصري «أميرة» (2021) لمحمد دياب (آفاق)، واللبناني «كوستا برافا» (2021) لمونية عقل (قسم مستحدث باسم «آفاق إكسترا»)، والفيلمان القصيران «مملكة الصمت» للسورية ديانا الجيرودي، و«لا تهدأ كثيراً» لليمنية شيماء التميمي (آفاق للأفلام القصيرة).

السينما العربية تمثّلت، في الدورة الـ71 لـ«مهرجان برلين»، بالوثائقي «كما أريد» (2021) للفلسطينية سماهر القاضي (منافسات)، والروائي المصري «سعاد»، واللبنانيين «حرب ميغيل» (2021) لإليان الراهب، و«وفاة بريء وخطيئة عدم العيش» (2021) لبيتر برباري (بانوراما). هناك أيضاً الوثائقي المصري «سبع سنوات حول دلتا النيل» (2021) لشريف الزهيري، واللبناني «كل نجومك تضع التراب على حذائي» لهايج إيفازيان (المنتدى الموسع). إضافة إلى مشاركات مختلفة في مهرجانات أخرى، متفاوتة القيمة.

> أفلام عربية غامر أصحابها بدفعهم إياها إلى المهرجانات

لا يمكن الحكم على قيمة الأفلام العربية وفنيّتها انطلاقاً من مشاركتها في مهرجانات سينمائية غربية وعربية، لأنّها ليست كلّها جيدة، أو كلّها سيئة. الاختيار يخضع لمنطلقات ومصالح ورؤى معينة، ليست كلّها فنية. لذا، يجب التوقّف عند الأفلام نفسها، وتقييمها وفقاً للسياق السينمائي. كذلك، لا يُمكن الحكم على أفلام، لم يحالفها الحظ في تلك المهرجانات، بأنّها سيئة فقط لأنّها لم تُقْبَل، لأنّ التقييم ينطلق دائماً من الفيلم نفسه أيضاً.

مشاركة «ريش» في «أسبوع النقاد» في «كانّ»، وحصوله على جائزته، شكّلا دعاية مهمّة له، ودَفْعاً قويا لعمر الزهيري. لكنّ الأمر أثّر سريعاً بمعنوياته، بعد الهجمة الشرسة على فيلمه، في الدورة الـ5 (14 . 22 أكتوبر/تشرين الأول 2021) لـ«مهرجان الجونة السينمائي»، بحجّة أنّه «يسيء إلى سُمعة مصر»، علماً أنّ الهجمة هذه أساءت إلى مطلقيها، وأعطت دعاية أوسع للفيلم، الذي يروي قصّة عائلة مصرية تحتفل بعيد ميلاد ابنها البالغ حديثاً 6 أعوام، فجلب له والده المتسلّط مجموعة هدايا، مع ساحر قدّم خدعاً سحرية مختلفة. لكنْ، مع تنفيذ إحدى تلك الخدع، تحوّل الأبّ إلى دجاجة، فحصل تحوّلٌ غامض في حياة الأسرة، التي دخلت مساراً سوداوياً ساخراً، اكتشفت الزوجة فيه إمكانية العيش من دون سلطة بطريركية. عودة الأب، بصورته الجديدة غير المُجدية، باتت عبئاً على الأسرة، متحوّلةً إلى خيبة أمل كبيرة، مع أنّ العودة طال انتظارها.

من فيلم «علّي صوتك» لنبيل عيوش (الملف الصحافي للفيلم)

اكتسب «ريش» جماليته من قبح الواقع، الذي جرت فيه أحداثه: حياة مُقرفة تعيشها الشخصيات، ودخان مُنبعث من المصانع، وقذارة الحمّام، والأثاث المهترئ المحيط بها، والمكاتب التي يذهبون إليها، والجدران المتآكلة المليئة بالرطوبة، والخيانات والغدر والحزن والألم والأمراض والقمامة، وغيرها من أشياء يعرفها سكّان العشوائيات، وهذه صُوَر ملطّفة من واقعهم. أما الذين يعيشون في أبراج عاجية، فيرونها تجنّياً وتكريس صُوَر سلبية، وإذا تجوّلوا في الشوارع، سيعرفون أنّ الخيال أكثر واقعية من أحكامهم. أحسن عمر الزهيري بمزج هذه الأشياء وفق سياق سرد منطقي، مولّداً من اللوحات الفنية الكئيبة لغة سينمائية قوية، استغنى فيها عن الحوار، الذي كان مُقتَصَداً إلى أقصى حدّ، وراهن على سيميولوجيا الصورة أكثر من الكلام، التي أوصل بها المعنى؛ واستطاع ترويض تيار «الغرائبية في السينما»، داعماً به موقفه في الفيلم. فعل هذا من دون أنْ يحسّ المُشاهد بتلك الغرائبية، التي يعكسها تحوّل رجل إلى دجاجة، وذهب بالمُشاهد إلى أقصى حدّ، لتتبع القصّة التي لم يعتد مثلها في السينما العربية، إلى درجة أنّه آمن بها وبتفاصيلها رغم غرائبيتها، وساند الأم معنوياً في بحثها عن زوجها.

تجديد بلا تحرّر تقني

أشرف الحساني

الطفرة التكنولوجية، التي شهدها العالم منذ مطالع الألفيّة الجديدة، فرضت مساراً مُغايراً في عملية إنتاج المعرفة السينمائية، وجماليّاتها ووسائطها ووسائل تلقّيها، من العاملين في الصناعة السينمائية، تأليفاً وإخراجاً ونقداً. لم يعُد المتلقّي محتاجاً إلى استهلاك العمل السينمائي، ما يجعله مجرّد كائنٍ يستقبل المنتوج من الخارج، بل يظهر . أحياناً كثيرة . الدور البارز الذي يلعبه المتلقّي في التأثير على جمعية ثقافيّة، أو مهرجانٍ فني، أو فيلم سينمائي.

ما شهده العالم العربي عامَ 2021، من جدلٍ ونقدٍ في التعامل مع تظاهرات فنية وأفلام سينمائية، يكشف المَكانة التي بلغتها وسائل التواصل الاجتماعي في تقديم أحكامٍ جماليّة، تختلف بين شخصٍ وآخر، وتتّخذ بُعداً عضوياً في علاقة الفيلم بالموضوع، لكنّها لا تستطيع أنْ تخترق بجرأةٍ مَعالم الصورة السينمائية، فنياً وجمالياً، مع أنّ فيزيونوميّة السينما العربية لم تتغيّر، باستثناء جهود قليلة في تونس ولبنان وفلسطين والأردن، حيث استطاع مخرجون عديدون فرض مُنجزهم السينمائي، ولفت انتباه المُشاهد الأجنبي، بفضل ما في أفلامهم من اشتغالاتٍ وجماليّات، في ارتباطها العُضوي والوثيق بالواقع العربي.

لم تعد السينما العربية مجرّد تقطيعٍ مَشهديّ، يُحوَّل إلى صورةٍ سينمائية، كما كان يَحدث في سبعينيات القرن الـ20. فالفعل السينمائي بات ضرورة مُلحّة للتفكير في إمكانيّة تطويق الإطار، وتهديم الواقع، وتفكيك بناه الداخلية، ما يجعل عملية إنتاج الصورة فكراً، فترصدها المُخيّلة، وتُبلورها العين، وتُكرّسها الكاميرا كفعلٍ إجرائي. هنا، تغدو السينما آلة جبّارة في إنتاج فكرٍ جديدٍ، يُكسّر البديهيات، ويدحض الإيديولوجيات التي يختزنها اللاوعي، ويُبلورها . في كلّ مناسبةٍ . الخطاب المكتوب، الذي أصبح في موضع ارتباك وتشكيك دائمين، لما تُوفّره السينما للمُشاهد من قدرةٍ على التحليل والاشتباك مع خطاب الصورة. ففي هذه السينما حمولات سياسيّة واجتماعية ونفسيّة، تجعل المخيّلة تنسج وشائج قوية مع مفهوم التأويل. ذلك أنّ الصورة السينمائية المُتحرّكة حمّالة أوجهٍ، تُبلور في دقيقة واحدةٍ . عبر اللقطات . عشرات الحقائق. لذا، يجد المُتلقّي نفسه تلقائياً مُنصاعاً لسحرها، بل تجعله مُشاركاً في صناعة مُتخيّل الفيلم في ذهنه كمُشاهدٍ.

هذا التعدّد التركيبي . الذي تتميّز به الصورة السينمائية، ما يجعلها مفتوحة على مختلف الأهواء والتأويلات . ساهم في ذيوعها لا كفنٍّ برجوازيّ، تتوسّله النخبة للترفيه، بل كوسيط بصريّ شعبي، قادرٍ على اختراق الاجتماع العربي بكل حدوده وأوضاعه. لذلك، يُعدّ الانفتاح . الذي تُتيحه الصورة وسائطياً . عاملاً مهمّاً في بروز ذائقة المُتلقّي، لا كمُستهلكٍ بل كذاتٍ مُفكّرة، قادرة على تأجيج الجدل، وخلق معنى جديد للفيلم السينمائي العربي.

تميّزت سينما 2021 بتنوّع المواضيع، وغنى الأساليب السينمائية في القبض على العابر والزائل والمنفيّ والمُهمّش، في ذوات ونفوس في الاجتماع العربي. الرغبة في التجديد حاضرة في كل فيلمٍ، لكنّ التجديد لم يتحرّر من بُعده التقني، المُتمثّل بالصورة، ما يجعل معظم الأفلام مُرتبكة كتابةً، إذْ لا تقوى على اختراق الواقع، لأنّها تظلّ سادرة أمام عتبة هذا الواقع، فتُفضّل أنْ تُوثّقه، بدل أنْ تتخيّله أو تُفكّكه، أو حتّى أنْ تجعله مُختبراً للتجريب والتفكير وطرح الأسئلة.

السينما المغربيّة عام 2021 نموذج لسينما غير مُنتمية إلى كوكب الأرض، لإقامتها في مواطن لا أحد يعرفها باستثناء المُؤلّف والمُخرج. معاً، يُقدّمان واقعاً كاذباً ومُفبركاً، لأنّ الفيلم الحقيقي كتبته لجان الدعم في هذا العام، وتواطؤاتٍ. وإلاّ، كيف يُفسّر العطب الذي ألمّ بها، وبعشرات السيناريوهات المُدعومة والهشّة، التي لا تصلح حتّى لإعادة الكتابة، فكيف بالأحرى للتصوير ثم العرض؟

يهرب المخرج المغربي إلى سيناريوهات أغلبها تاريخيّة، ليتهرّب من ممارسة نقدٍ صريحٍ للسُلطة وميثولوجياتها. المُشاهد المغربيّ يمتلك من الحدس ما يجعله يفطن لجوهر هذه اللعبة الناعمة وخفاياها، التي باتت تُمارَس في السينما. كلّ هذا حصل مع بروز قدرات مخرجين ومخرجات من لبنان والأردن وسورية وفلسطين في تجريبٍ يأخذ شكل مُغامرة سينمائية، تبدأ بالصورةٍ كمدخلٍ بصريّ، وتنتهي بالواقع، لا كفضاءٍ وجوديّ حيّ، تتحرّك فيه القصص والحكايات، بل كـ«براديغم» فلسفي، يحتاج إلى تفكيك بصريّ دائمٍ. الأفلام القصيرة لهؤلاء تمتلك فسحة تأمّل، وخصوصية نوعية في ممارسة نقدٍ مُبطّنٍ لسُلطةٍ لا ترى إلا نفسها في الوجود اليومي. سهولة الكتابة والتكثيف والاكسسوارات وعمليّة الإنتاج تجعل عدداً من التجارب الجديدة تنتج أفلاماً ذات ميزانيات بسيطة، لكنْ بقدرات لامعة على اللعب بالصورة ومُتخيّلها وتجريدها في كلّ مشهدٍ، على شكل شهادةٍ تستحقّ أنْ تُوثّق وتُروى. أمّا الروائي، فله خصوصياته عربياً، لكنّ اشتغالاته تظلّ عسيرة هذا العام إنتاجياً، بسبب كورونا وهشاشة الوضع الاقتصادي، ما يُغيِّب التخييل السينمائي، إلى درجة تبدو السينما معها كأنّها تاريخانية، لا تستجيب صورها إلاّ إلى وقائع ماضويّة، علماً أنّ أفلاماً أخرى ترصد الواقع العربي في علاقته بتاريخ بلده وذاكرته.

> تربّع أساتذة وأعضاء نواد وجمعيات على رأس مهرجاناتٍ مغربيّة

يُسجّل المُشاهد العربي مُلاحظة مهمّة في ختام هذا العام، باعتباره عام مهرجاناتٍ بامتياز. الجدل الذي سبّبته كتابات عن هذه المهرجانات قويٌّ، والأسئلة التي طرحتها أقلام نقادٍ وصحافيين من شأنها خلق جدل سينمائي، إذا تمّ توجيهه واستثماره في كتابات رصينة، تحترم النسق المعرفي والشرط المنهجي في بلورة فكر سينمائي.

هذا لم يحدث عربياً، رغم دخول المُشاهد عبر وسائل التواصل في النقاش. ففي المغرب، بدا الناس كأنّهم يتركون وظائفهم، ويُعيّنون أنفسهم رؤساء مهرجاناتٍ سينمائية. هكذا، تربّع أساتذة وأعضاء نوّاد وجمعيات على رأس مهرجانات مغربيّة، لا تعرض إلاّ القديم الذي أُنهك عرضاً ومُشاهدة وكتابة، ما جعلها تبدو في صورة باهتةٍ ومُرتبكةٍ، لا تحمل ذرّة من المهنية.

رغم هذا الجدل، المرافق لمهرجانات سينمائية مغربيّة، لم تُحرّك السُلطة ساكناً، لأنّها المُستفيد الأكبر من هذه اللعبة، حيث يتحوّل المهرجان من فضاءٍ للمُشاهدة والنقاش والنقد والتحليل إلى مكانٍ للفسحة والاستجمام. أهميّة الجدل تبدأ من اللحظة التي يُصبح فيها خطابه ثورياً، ويُفكّك ميثولوجيات المؤسّسات، ويُعرّي تواطؤها مع السلطة.

فرنسا: صعودٌ محلي وثبات عربي

باريس ـ ندى الأزهري

أدّى إغلاق صالات العرض في فرنسا لأكثر من 4 أشهر، بداية عام 2021، إلى تهاوٍ في نسبة التردّد على السينما في العام نفسه. يُشير إحصاء، نشره «المركز الوطني للسينما والصورة المتحرّكة (فرنسا)»، بداية ديسمبر/ كانون الأول الماضي، إلى أنّ عدد البطاقات المباعة . بين إعادة فتح الصالات في 19 أيار/ مايو، ونهاية تشرين الثاني/ نوفمبر . بلغ 75 مليوناً. رقمٌ يُعتَبر الأدنى منذ عقود، مقارنةً بالرقم القياسي لعام 2019، أي 213 مليوناً، الأعلى في فرنسا منذ 50 عاماً.

ليست مناسبة مقارنة عام بآخر قياسي، أو بعام 2020، الذي أعلن فيه كورونا عن وجوده. هنا، ارتفعت نسبة التردّد على صالات السينما بمعدل 15 بالمائة، مُقارنة بالفترة نفسها من العام الماضي. هذه نسبة متواضعة، تدلّ على توجّه جديد لدى الجمهور السينمائي في فرنسا، سيتّضح أكثر في المستقبل القريب، وتعلن عنه اليوم دراسات واستقصاءات رأي، يُبيّن بعضها أنّ أسباب انخفاض التردّد لا تقتصر على طول فترة الإغلاق، الممتدّة من نهاية العام الماضي إلى 19 أيار/ مايو 2021، بل عوامل أخرى متعلّقة بـ«الاعتياد»، وغيره.

قبل الوباء، كان 3 فرنسيين من أصل 4 يذهبون إلى صالات السينما مرّة واحدة على الأقل سنوياً. اليوم، نصف الذين يذهبون إليها بانتظام لم يعودوا إليها منذ فرض إبراز «شهادة المرور الصحي» أو نتيجة سالبة للوباء، شهراً بعد إعادة فتحها.

في دراسة لـ«معهد هاريس انتراكتِف»، صدرت في أيلول/ سبتمبر 2021، أي 3 أشهر بعد إعادة فتح الصالات، تبيّن أنّ فرنسياً واحداً من 3 يعتقد أنّه سيُقلّل من ذهابه إلى الصالات حتى نهاية العام. وأنّ 52 بالمائة من المُسْتَجْوَبين أعادوا الأسباب إلى الخوف من العدوى. كما عارض البعض الإجراءات الصحّية الخاصة بالسماح بالدخول إلى قاعات العرض، إذْ أكّد ربع غير المُطعَّمين رفضهم الذهاب وإجراء فحص كورونا. تزايد العدد بعد إلغاء مجانية الفحص.

> انعكس الوباء إيجابياً على الفيلم الأوروبي والأجنبي

دراسةٌ أخرى . أجرتها «مؤسّسة فيرتيغو»، ونشرتها مجلة «الفيلم الفرنسي» على موقعها الإلكتروني (19 تشرين الأول/ أكتوبر 2021)، بيّنت أنّ الكمامة عائقٌ أمام الرغبة في الذهاب إلى الصالات، إذْ وضّح ثلث المُستطلَعين أنّهم لا يذهبون إليها بسبب إجبارهم على وضع الكمامة، كما بيّن ربعهم أنّهم فَقَدوا عادة الذهاب إليها، وأكّد ربعٌ آخر أنّ أسباب ابتعادهم عائدة إلى نوعية الأفلام (السيئة)، وارتفاع أسعار البطاقات من 7 إلى 14 يورو (بحسب كل صالة وكلّ عمر). في دراسة لوزارة الثقافة الفرنسية، نشرتها صحفٌ فرنسية، تبيَّن أنّ ربع الفرنسيين يُفضّلون اليوم مُشاهدة التظاهرات الثقافية على الوسائل الرقمية، من منصّات وغيرها.

بانتظار الأرقام النهائية، هناك ملاحظات إيجابية في التقديرات الأخيرة لـ«المركز الوطني». ففي عامي الوباء، استفاد الفيلم الفرنسي بارتفاع حصّته في السوق (42 بالمائة)، مُقارنة بحصّة الفيلم الأميركي (37 بالمائة)، الذي فضّل معظم منتجيه تأجيل عروضه بانتظار ظروفٍ أفضل. كما انعكس الوباء إيجابياً على «الفيلم الآخر»، أي الآتي من أوروبا وبقية دول العالم، إذ بلغت حصّته في السوق الفرنسية 21 بالمائة، وهذه نسبة مرتفعة، مُقارنة ليس فقط بالعام الماضي (14,3 بالمائة)، بل حتّى بعام 2019 (16,5 بالمائة).

يتجلّى صعود الفيلم الفرنسي بوضوح في وجود 4 أفلام فرنسية على لائحة الأفلام الـ10 الأكثر جذباً للمُشاهدين في فرنسا، عام 2021. يتصدّر اللائحة «لا وقت للموت» (2021)، لكاري جوجي فوكوناغا، المؤجّلة عروضه في العام الماضي. إنّه أحدث إنتاجات العميل السري جيمس بوند، الذي أعلن عن رغبته في اعتزال المغامرات وفي الاستجمام. لكنْ، هناك ما لا يدعه يرتاح، فيبدأ مهمّة جديدة وخطرة. الفيلم الثاني أميركي أيضاً، بعنوان «ديون» (2021)، لدوني فيلنوف، عن صراع قوى خارقة خيّرة، يمتلكها شابٌ عبقري، مع قوى شرّ، بهدف السيطرة على مصادر طبيعية على كوكب آخر، بعد نضوب خيرات الأرض.

في المرتبة الـ3، فيلمٌ فرنسي بعنوان «كاملوت . الجزء الأول» (2021)، لألكسندر آستيه، المأخوذ عن مسلسل فرنسي تلفزيوني مشهور، يعتمد الهزل الساخر في نظرته إلى التاريخ وشخصياته الأسطورية. يختار الفيلم وقوف الملك آرثر أمام جيش صديقه السابق.

في لائحة الموقع الفرنسي «بوكس أوفيس»، احتلّ الفيلم الفرنسي Bac Nord، لسيديرك خيمينيز (2020)، المرتبة الـ4: عن متاعب الشرطة الفرنسية في أداء مهمّاتها في حيّ الشمال الصعب في مارسيليا؛ كما حلّ فيلم فرنسي آخر، ذو مغامرات فكاهية وساخرة، في المرتبة الـ8: «أو. أس. أس 117: إنذار أحمر في أفريقيا» (2021)، لنيكولا بيدوس: جزءٌ ثالث من سلسلة أفلام العميل السرّي، الذي يؤدي دوره الممثل جان دوجاردن.

بقية اللائحة للسينما الأميركية، مع أفلامٍ ينتمي معظمها إلى نوعي الرعب والمغامرات.

أما السينما العربية، فحضورها ثابتٌ للعام الـ3 على التوالي، مع عرض 9 أفلام في الصالات الفرنسية، وهذا حاصلٌ عام 2020، بينما شهد عام 2019 عرض 10 أفلام. عدد الأفلام العربية في الصالات الفرنسية ضئيلٌ مُقارنة بعام 2018، الذي عُرض فيه 20 فيلماً. بعض تلك الأفلام العربية عُرض في صالات تجارية كبرى، وبعضٌ آخر في صالات «فنّ وتجربة».

بدأ العرض في حزيران/ يونيو، أي بعد شهرٍ من إعادة فتح الصالات بفيلم «الرجل الذي باع ظهره» (2020)، للتونسية كوثر بن هنية (عن النظرة إلى اللاجئ كغرض)، ثم «مجنون فرح» (2021)، للتونسية أيضاً ليلى بوزيد: قصة حبّ بين شاب فرنسي ذي أصل جزائري، وشابة تونسية تأتي إلى فرنسا للدراسة في إحدى جامعاتها، فتغدو للشاب نافذة انفتاح على عالم الثقافة العربية وعلى العشق، في نظرة واقعية للمخرجة وكاتبة السيناريو، لكنْ أيضاً نظرة مبتكرة وجذّابة على الشباب العربي من جهتي المتوسط.

لاقى الفيلم الفرنسي Bac Nord لسيديرك خيمينيز نجاحاً مقبولاً (يوتيوب)

عام سينمائي واعد في العراق

بغداد ـ علاء المفرجي

السينما العراقية، عام 2021، تُنبئ بمسيرة ناجحة، قياساً إلى الأعوام الماضية. الدليل على ذلك؟ وفرة الأفلام الروائية الطويلة المُنتجة فيه، التي أكّدت حضورها المتميّز في ذائقة المتلقي، وفي المهرجانات السينمائية، إضافةً إلى عددٍ كبير من الأفلام القصيرة، التي أنتجها سينمائيّو الداخل خاصّة، وأغلبهم شبابٌ.

هذا العدد يُشكّل إنجازاً سينمائياً جيّداً نسبياً، مقارنة مع العقود الـ3 الأخيرة من تاريخ هذه السينما. لكنّ مشاكل السينما العراقية باقية، بل تزداد مع ازدياد شغف الشباب بالسينما، والذين يُعبّرون عن حبّهم لها، بمحاولاتهم المستمرّة، التي تصل أحياناً إلى المهرجانات السينمائية.

التمويل والإنتاج لا يزالان المشكلة الأهم في السينما العراقية. السينمائيون العراقيون، خصوصاً أولئك المُقيمين في العراق، يبدو الأمر بالنسبة إليهم صعباً، وأحياناً مستحيلاً، عكس أقرانهم خارج العراق، فهؤلاء وجدوا الأرض مُمهّدة أحياناً من الجهات المعنية للتمويل والمساهمة في الإنتاج. المخرج ملاك عبد علي، المُقيم في العراق، وأحد الذين يعانون بشدّة أمر الإنتاج والتمويل، يقول: «الإنتاج السينمائي في العراق كارثيّ، بسبب عدم دراية الدولة بأهمية السينما. أغلب الأفلام قصيرة ومستقلّة ومتواضعة الميزانيات، رغم نجاحها. يجب أنْ يكون هناك دورٌ للدولة في صناعة السينما. أقصد بذلك عدم تمويل الأفلام بمبالغ ضخمة. كلّ أفلام الشباب أُنتِجت إما بشكلٍ شخصيّ، وإما بمساعدة شركات إنتاج قدّمت معدّات ومواقع».

تتّخذ المشكلة شكلاً آخر بالنسبة إلى المُقيمين خارج العراق. حيدر رشيد، المُقيم في إيطاليا، يقول: «في البدء، أردتُ صنع فيلم بمالٍ قليل. هكذا، بكلّ بساطة: عملٌ يُنجَز بالتعاون مع أصدقاء. لاحقاً، انتبهتُ إلى أنّ المنطق يفرض عليّ محاولة جعله أكثر تنظيماً. «لجنة توسكاني للأفلام» أول من اقتنع بالمشروع (أوروبا)، فمنحتني جزءاً من الميزانية. تمكّنني من صوغ مشروع إنتاجي، يضمّ إيطاليا والعراق والكويت». بسهولة، يُمكن تبيان الفرق بين هموم مخرجي الداخل ومخرجي الخارج، بخصوص التمويل.

منذ عام 2013، قدّمت وزارة الثقافة العراقية منحاً إلى مخرجين عراقيين، أثارت جدلاً واسعاً في الوسط السينمائي، بسبب شبهة فساد فيها. منذ ذلك الحين، تُقدّم الوزارة منحاً لأفلامٍ تختارها لجنة متخصصين، بواقع 4 أفلامٍ روائية، و6 أفلام قصيرة. المبالغ متواضعة، لا ترتقي إلى حجم إنتاج الأفلام؛ ومع هذا، كانت استجابة لمطالب سينمائيين كثيرين في الأعوام الماضية.

مشاكل أخرى تعانيها السينما العراقية، أبرزها قصور المؤسّسات التعليمية الفنية، التي تساهم أساساً في تثبيط همّة المتعلّمين، بسبب نقص الأجهزة والكوادر الفنية. رغم هذا، شهد عام 2021 إنتاج أفلامٍ روائية طويلة، منها أفلامٌ حصلت على منحٍ (مذكورة سابقاً) من وزارة الثقافة. منها «أوروبا» لحيدر رشيد، الذي اختير لتمثيل العراق في التصفيات الأولى لجائزة «أوسكار» أفضل فيلم دولي، في النسخة الـ94 (27 مارس/آذار 2021)، والذي يتناول قضية هجرة الشباب العراقيين، من خلال قصة كمال، الذي عزم على الرحيل من العراق إلى أوروبا، في رحلةٍ طويلة محفوفة بمصاعب ومخاطر، يقوم بها سيراً على قدميه، لعبور الحدود بين تركيا وبلغاريا، حيث يقوم مرتزقة بمطاردة المهاجرين، فيتوغّل كمال في غابة لا نهاية لها، تُشكّل عالماً خارجاً عن القانون.

اختير فيلم «أوروبا» لحيدر رشيد لتمثيل العراق في التصفيات الأولى لجائزة «أوسكار» (IMDb)

كذلك «رجل الخشب» لقتيبة الجنابي، الجزء الأخير من ثلاثية تضمّ «الرحيل من بغداد» و«قصص العابرين». تدور أحداثه حول دمية خشبية، بالحجم الطبيعي للإنسان، لكنّها لا تتحدّث ولا تتحرّك. طريقة التصوير والفعل الدرامي للمونتاج يعكسان ما يرنو إليه رجل الخشب هذا، كما يعكسان أحاسيسه وعواطفه ومحنته. حكاية خيالية، ترمز إلى الغرباء واللاجئين، الذين يمثّلهم رجل الخشب. حكاية مختلفة عن التصوّر المعتاد لأفلام الهجرة، فرجل الخشب يودّ العودة إلى المكان الأول (الوطن). إنّه يمثّل أمنية لاجئين كثيرين.

هناك أيضاً «الامتحان» لشوكت أمين كوركي، إضافةٍ إلى أفلامٍ روائية لم تكن مشمولة بمنح وزارة الثقافة: «كلشي ماكو» لميسون الباجه جي، الذي استغرق العمل فيه نحو 10 أعوام، منذ الكتابة حتّى المشاركة في أول مهرجان سينمائي، «مهرجان سارايفو السينمائي»، بداية أغسطس/آب الماضي، والذي شاركت الباجه جي في كتابته مع الأديبة العراقية إرادة الجبوري: تجري أحداثه في منطقة مختلطة في بغداد، شتاء 2006، يكافح سكّانها للحفاظ على أمل هشّ وحسّ مجتمعي، في زمن العنف الطائفي الشديد. تتقاطع قصصهم، بينما يحاولون حماية أحبّائهم، واتّخاذ قرار الرحيل أو البقاء، ومعالجة الضرر الداخلي والخارجي بالموسيقى والفكاهة. كذلك، «فيلم كال وكيمبرج»، للعراقي المقيم في بريطانيا جعفر عبد الحميد، الذي تدور أحداثه وسط الجالية العربية في لندن. يتناول صعوبة تأقلم أبناء وبنات مهاجرين عرب، مع توقّعات وآمال الآباء والأمهات لهم على صعيد الدراسة والمهن المفضّلة، وطبعاً الزواج. حاول عبد الحميد، عبره، ولوج تلك المنطقة الحميمية، التي تخلق ضغطاً على البريطاني المولود من أبوين مهاجرين من العالم العربي.

من الأفلام الروائية المهمة عام 2021، «جنائن معلّقة» لأحمد ياسين، الفائز بجائزة لجنة تحكيم ورشة «فاينال كات»، في الدورة الـ78 (1 . 11 سبتمبر/أيلول 2021) لـ«مهرجان فينيسيا السينمائي الدولي»، كأفضل فيلم في مرحلة ما بعد الإنتاج، إضافةً إلى 4 جوائز أخرى. يروي الفيلم قصة المُراهق أسعد (12 عاماً)، الذي يعثر على دمية جنسية أميركية في مكبٍّ للنفايات في بغداد. بينما يعبر منطقة محرّمة، يجد نفسه وسط معركةٍ بين مُدافعين عن حقوق الإنسان، وقوى استغلالية للتسليع الرأسمالي، وقوى أصولية دينية، في حيّ فقير يقطنه في المدينة نفسها.

كما أنجز ملاك عبد علي «آخر حلم»: قصة حبّ بين شابة ورجل كبير في السنّ، تشكيلي يرسم . بطريقة الفنان العراقي المعروف محمد مسير . نساء يركبن درّاجات هوائية، ويطرن في السماء؛ وعدي مانع صوّر «وراء الباب» في تركيا. وهناك «هاملت البغدادي» لطه الهاشمي.

يُذكر أنّ العراق شهد، عام 2021، عرضاً جماهيرياً لأول فيلم تحريك طويل، أنجزه أنس الموسوي بعنوان «كلكامش العظيم». الموسوي مخرج له أفلام عدّة، شاركت في مهرجانات سينمائية عراقية وغير عراقية، وفاز بجوائز مختلفة.